٣- فارس الصحراء

(الأمير يوسف كمال)

هل تخيل الأمير يوسف كمال أن رحلاته التي خاضها، و خرائطه التي رسمها منذ أكثر من نصف قرن ستكون من أهم الوثائق التي ساعدت في عودة قطعة غالية من أرض مصر إلى حضن الوطن ..

مدينة طابا الجميلة ؟!

الجفاف و الخصب ، الخطر والأمان ، الواقع و الخيال ... مشاعر متناقضة بين الأبيض والأسود استطاع أن يتفاعل معها و يعيش متنقلاً بينها لتشكل ملامح شخصيته و طريقة حياته ..

إنه الأمير يوسف كمال ، حفيد إبراهيم باشا وإلى مصر و من أهم أغنياء الأسرة المالكة ، كان يمتلك معظم أملاك قنا، و بلغت مساحة الأرض التي يمتلكها ٢٤ ألف فدان .

كان من الممكن أن يقع الأمير يوسف كمال تحت إغراء هذا الثراء فينفق ببذخ و بلا حساب على أمور تافهة، و لكنه استغل هذا الثراء في الإنفاق على رحلاته الشائقة في البحار والصحارى ، التي صحبه فيها الأمير كمال الدين حسين بن السلطان حسين كامل عام ١٩٢٤ إلى صحراء ليبيا .

أحضر الأمير سيارات من فرنسا تتسلق الجبال و التلال، كما أحضر المهندسين الفرنسيين الأكفاء الذين رافقوا البعثة الفرنسية التي اخترقت أكبر صحراء في العالم و هي الصحراء الكبرى ، كان الغرض من هذه الرحلة هو التوصل إلى اكتشاف جهات لم يصل إليها المكتشفون بعد .

واجه الأمير يوسف كمال في مغامراته الكثير من الأخطار التي حاصرته ، و التي كان من الممكن أن تجبره علي هجر تلك الرحلات و اعتزالها ، و لكنها على العكس زادته تمسكًا بحب المغامرة و خوض المجهول .

كان الأمير يوسف كمال عاشقًا للطبيعة ، من الصحراء المترامية الأطراف إلى البحار العميقة ، و قاده فضوله العلمي إلى محاولة معرفة جذوره الأسرية ، فقام برحلة بحرية إلى مدينة (قولة) الألبانية بيخته الخاص لمشاهدة البيت الذي ولد فيه جده محمد علي باشا ،

للأمير يوسف كمال العديد من المؤلفات في التاريخ و الجغرافيا ، منها (سياحتي في بلاد التبت و كشمير) ، كما قام بوضع أطلس جغرافي للقارات الخمس .

كان الأمير يوسف كمال يقضي ثلاثة أشهر كل عام في السفر و التنزه ، و كان كلما استكشف منطقة وضع لها خرائط تفصيلية تصحح الخرائط الموجودة و تكملها ، مثل الخريطة التي رسمها لمصر ، صحح فيها كل الأخطاء التي وقع فيها الجغرافيون في رسم الحدود المصرية .

في مجال الزراعة ساهم الأمير يوسف كمال في تنمية مئات من القرى في صعيد مصر ، إذ قام بتحديث التقنيات الزراعية في منطقة نجع حمادي .

امتد عشق الأمير يوسف كمال من ألوان الصحارى و الوديان إلى ألوان اللوحات و التماثيل ، فكان رئيسًا لجمعية الفنون الجميلة ، اقتنى العديد من اللوحات و المجموعات الفنية ، و كان يتجول في أنحاء العالم بحثًا عن القطع النادرة من الفن الإسلامي و الأسيوي ، ليهديها في الحال إلى المتاحف الملكية .

تبرع الأمير يوسف كمال بمبلغ من المال ، و أوقف ١٢٥ فدانًا من أطيانه بالقليوبية لبناء الجامعة المصرية ، و إذا كان الأمير يوسف كمال مجرد مشارك في بناء

الجامعة ، إلا أنه يرجع إليه الفضل في إنشاء مدرسة الفنون الجميلة بالقاهرة عام ١٩٠٨ على نفقته الخاصة ، و تعود فكرة إنشاء مدرسة الفنون إلى أحد النحاتين الفرنسيين الذي كان يصمم تمثالاً للأمير يوسف كمال و أبدى دهشته من عدم وجود مدرسة للفنون الجميلة بمصر بلد الحضارة ، تحمس الأمير يوسف كمال لفكرة إنشاء مدرسة للفنون الجميلة بمصر .

فدعا الأساتذة الأجانب من مشاهير الفنانين الأوروبيين للتدريس فيها ، و كانت الدفعة الأولى ممن تقدموا للالتحاق بالمدرسة عددهم نحو أربعمائة شاب من محبي الفنون الجميلة ، نبغ من بينهم الكثير مثل الفنان يوسف كامل و الفنان أحمد صبري.

عندما أصدر الخديو إسماعيل أمرًا بتأسيس الجمعية الجغرافية الخديوية بالقاهرة لدراسة علم الجغرافيا بكل فروعه ، كان من أهم مقتنيات مكتبة هذه الجمعية تلك المجموعة النادرة من الوثائق و الخرائط التاريخية التي رسمها الأمير يوسف كمال ، والتي كان لها الفضل في عودة مدينة طابا الجميلة ، فكانت الخرائط النادرة التي رسمها بدقة الأمير يوسف كمال لقارة إفريقيا بمثابة الدليل الذي أصدرت على أساسه المحكمة الدولية حكمها لصالح مصر لتصبح

طابا مصرية ، والفضل يرجع لواحد من عشاق مصر المحروسة ، عشق ترابها فتجول في الصحراء، و رسم الخرائط ، وعشق نيلها الخالد ، فكانت رحلاته التي كشف فيها عن أعماقه و ما تحويه من كنوز .

عشق يوسف كمال الجمال بكل صوره فجسده في صرح علمي فني ، ما يزال يحمل عبق أنفاسه و بصمات أنامله ، مدرسة الفنون الجميلة بالقاهرة ..

obeikandl.com